كُتُب النوازِل مصدرٌ للدراساتِ الاقْتِصَادِيةِ والاجْتِمَاعِيةِ في الْمَغْرِبِ والأَنْدَلُسِ
(نوازل ابن الْحَاج (ت٥٢٩هـ/١١٣٤م) أنموذجًا)

أنور مَحْمُود زناتي[1]

مدخل

تُعَد كتب النوازِل من أهم المَصَادِر التي تمكن من سد الثغرات التي تعتري التَّارِيخ الإِسْلامي. وفي هذا البحث نؤكد على أهمية النوازِل كعلم من العُلُوم الفِقْهِيَّة في الدِّرَاسَات الاقْتِصَادِية والاجْتِمَاعِية، واخترنا الاعتماد على مَخْطُوط نوازِل ابن الْحَاج[2] (ت٥٢٩هـ/١١٣٤م) وهو من أبرز النوازِل الفِقْهِيَّة الخاصة بالْمَغْرِب والأَنْدَلُس، لاسيما وأن ابن الْحَاج كان شاهدًا على العصر؛ وأحد أبرز وجوهه، وكان من جلة الْفُقَهَاء وكبار العُلَمَاء بالنوازِل، بصيرًا بالْأَحْكَام ومتقدمًا في معرفتها وكان لنوازله قيمة حقيقية في حلول كثير من مشكلات عصره، إذ هي حلول لمشاكل أهل بلاده، وتميزت فتاواه بالتنوع. والحقيقة أن لنوازل ابن الْحَاج جوانب متعددة عن الْحَيَاة الاجْتِمَاعِية والاقْتِصَادِية في غاية الأهمية؛ فهو يتضمن الكثير من النّصوص والوَثَائِق التي قلما ترد في المَصَادِر التَّارِيخية والتي تمس كل

---

(١) مدرس التاريخ الإسلامي ـ كلية التربية ـ جامعة عين شمس.

(٢) المخْطُوطة توجد بالخزانة الْعَامَّة للوَثَائِق والمخْطُوطات بالرِّبَاط، تحت رقم: ج ٥٥. مكتوبة بخط مغربي ردئ صغير الحرف، وتتكون من ٣٢٤ ورقة مقاس ١٥ ٢١ كل صفحة بها ٢٣ سطراً، في كل سطر من ١٢ الى ١٣ كلمة.

جوانب المجتمع في الغرب الإسلامي. وتتجلى قيمة النوازل الواردة في الكتاب ، في اعتماد مؤلفه على أمهات مصنفات الفقه المالكي إلى جانب فتاوى أبيه ، فضلاً عن استناده إلى فتاوى فطاحلة فقهاء عصره.

الدراسات السابقة

أما بالنسبة للدراسات السابقة فقد بدأت بالجهود الاستشراقية فكان أهمها دراسة لوبيث أورتيث (Lopez Ortiz)، حول دخول الفتاوى الأندلسية وقيمتها الكبرى[1] ، كما اعتنى المستعرب الإسباني سلفادور فيلا (Salvador Villa) بدراسة الفصول الخاصة بنوازل الزواج في الأندلس من خلال كتاب المقنع في علم الشروط لابن مُغيث الطُّلَيْطِلي (ت٤٥٩هـ/١٠٦٧م) وبيدرو شالميتا (Pedro Chalmeta) الذي حقق كتاب الوثائق لابن العطار (ت٣٩٩هـ/١٠٠٩م) وصدره بمقدمة باللغة الإسبانية وطبع ضمن منشورات المعهد الإسباني العربي للثقافة في مدريد (١٩٨٣) بتعاون مع مجمع الموثقين المجريطي.

كما لفت الانتباه إلى قيمة النوازل الفِقْهِيَّة وضرورة التعويل عليها المستشرق ليفي بروفنسال (Levi Provincal) في كتابه تاريخ اسبانيا الإسلامية وقد رجع بالفعل إلى كتاب الأحكام الكبرى لابن سَهْل (ت٤٨٦هـ/١٠٩٣م) في عدد لا بأس به من القضايا الاجْتِمَاعِية والاقْتِصَادِية في الأندلس كتجربة حية لما قاله. كما أشار عدد من المستشرقين أيضا إلى أهمية كتب النوازل منهم المستشرق الألماني جوزيف شاخت (Joseph Schacht) وجاك بيرك (jaque berque) وروبرت برونشفيك (Robert Brunschvig).

---

(1) «Fatwàs granadinas de los siglos XIV y XV. La fatwà en al-Andalus», *Al-Andalus*, 6, 1941, 88.

ومن الدراسات العَرَبيَّة في هذا المجال ؛ هناك الدراسة القيمة للدكتور مَحْمُود علي مكي عند تحقيقه لكتاب أحكام السوق لِيَحْيَىٰ بن عُمَر الكناني (ت٢٨٩هـ/ ٩٠١م)[١] . وهناك الدراسة المتميزة للدكتور مُحَمَّد عبد الوهاب خلاف عند تحقيقه المتميز لنوازل ابن سَهْل ثم تتابعت الدراسات التي تنوه بأهمية كتب النوازِل مثل سعد غراب في بحثه عن كتب الفتاوى وقيمتها الاجْتِمَاعِية : مثال نوازل البُرْزُلي (ت٨٤١هـ/١٤٣٩م). وعبد العزيز خلوق ، قيمة فقه النوازِل التَّارِيخية.

أما قيمة نوازل ابن الحاج فقد تنبه البعض إلى أهمية هذا المَخْطُوط ، منهم : ماريا خيسوس فيغيرا في بحثها القيم : المشاكل المرتبطة بالمياه في الأَنْدَلُس من خلال نوازل ابن الحاج ، كما قام أحمد اليُوسُفي شعيب بدراسة عنوانها : أهمّيّة الفتاوى الفِقْهِيَّة في كشف وقائع التّجربة الأَنْدَلُسيّة (نوازل ابن الحاج نموذجًا) ، وذلك في ندوة الأَنْدَلُس قرون من التقلبات والعطاءات[٢] . كذلك استعان به الباحث الْمَغْرِبي الدكتور إِبْرَاهِيم الْقَادِري بوتشيش فقام بعمل بحثا عنوانه : مَخْطُوط نوازل ابن الحاج وأهمية مادته التَّارِيخية ؛ ثم بعد ذلك أحسن الانتفاع منه في كتابه مباحث في التَّارِيخ الاجْتِمَاعِي للمغرب والأَنْدَلُس خلال عصر المُرَابِطين[٣] حيث ركز على عدد غير قليل من النوازِل ومنها مَخْطُوط ابن الحاج. كذلك من الرسائل الجامعية التي رجعت لذلك المَخْطُوط ، رسالة الدكتوراه عن الْحَيَاة الفِكْرِيَّةُ بالأَنْدَلُس في عهد المُرَابِطين للباحث الجزائري مُحَمَّد الأمين بلغيث[٤] وتطرق في هذه الرسالة ذلك المَخْطُوط خاصة عند تناوله المسائل الخاصة بالملكية العقارية ووضعية البساتين

---

(١) نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ، المجلد الرابع ، ع ١-٢.

(٢) القسم الأوّل ، التَّارِيخ وفلسفته ، (مكتبة الملك عَبْدِ الْعَزِيزِ العامّة ، ١٩٩٦م) ، ٣٨١.

(٣) بيروت ، دار الطليعة ١٩٩٨م.

(٤) مايو ، ٢٠٠٣م.

والمنيات[1] ومدى الاهتمام بها وبأنتاجها وتحسينها بأستمرار من جهة والنزاعات القائمة بين الأقارب ومسائل المياه.

وقد جاءت إضافتي لتلك الجهود لتركز على الجوانب الاقْتِصَادِية مقسمة إلى (الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة) ثم الْحَيَاة الاجْتِمَاعِية وتعرضت للتدرج الطبقي في الأَنْدَلُس وفق نوازله وتعرضنا للملابس أهل الأَنْدَلُس وكذلك وضعية المرأة ومشاكل الزواج والطلاق ، ووضع الأقليات الدينية من نصارى ويهود ، وكذلك التعرض لتفشي بعض الأمراض والأمراض الاجْتِمَاعِية كتفشي ظاهرة السرقة.

هذا ولم تكن الدراسة لتستقيم إلا بعد اعتماد الباحث على المخْطَوطة الخاصة بنوازل ابن الحاج. وقد قسمنا الدراسة إلى تمهيد ومبحثين اثنين ، وخاتمة. تناول **التمهيد** أهمية علم النوازِل وسمات كتب النوازِل والشروط المثالية للاستفادة من النازلة ثم تعرضنا إلى شخصية ابن الحاج وأهمية نوازله ومدى اسهامها في تاريخ الْمَغْرِب والأندلس. أما **المبحث الأول** فتناولنا فيه دور نوزال ابن الحاج في ابراز النشاط الاقْتِصَادِي (الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة) في الْمَغْرِب والأَنْدَلُس بصورة جلية وتناول قضايا اقتصادية متعددة. وجاء **المبحث الثاني** ليتناول الْحَيَاة الاجْتِمَاعِية في الْمَغْرِب والأَنْدَلُس من خلال تلك النوازِل ورص ابن الحاج لأحوال المجتمع من خلال تلك النوازِل. ثم جاءت الخاتمة متضمنة أهم النتائج ثم توصيات الدراسة.

أهمية علم النوازِل

عِلم النوازِل من العُلُوم الفِقْهِيَّة في التُّرَاث الإسلامي ، والنوازِل هي : الواقعات والمسائل المستجدة التي تنزل بالعالم الفقيه ؛ فيستخرج لها حكمًا شرعيًا. ويطلق

---

(١) المنية : هي ضيعة حول القصر على نمط الفيلات في العصر الروماني ، وقد نقل العرب نموذج المنية الى الأَنْدَلُس كما كان بالْمَشْرِق أيضا . إِبْرَاهِيم حركات : الأوضاع المَالِية والاقْتِصَادِية في العصر الأموي ، الرِّبَاط ـ مجلة دعوة الحق ، ع ٢٦٧، ١٩٨٧م ، ٦٢.

عليها »النوازِل« و»الفتاوى« و»الأجوبة« و»الأَحْكَام « و»المسائل« ، و»الواقعات« ؛ وكلها مصطلحات تعكس مفاهيم متقاربة[1] .

وتشكل كتب النوازِل مادة مصدرية لا غنى عنها بالنسبة للمؤرخ لأنها تمكنه من سد الثغرات التي تعتري التَّارِيخ الإِسْلامي ، والتعامل معها ، كشكل من أشكال الخطاب التُّرَاثي ، أصبح أمرًا تفرضه ضرورة البحث عن مصادر جديدة لكتابة التَّارِيخ الاقْتِصَادِي والاجْتِمَاعِي والسِّيَاسِي ، وذلك من أجل سد الفراغ الذي يعتري عادة أدب الحوليات ، ولأن المَصَادِر الإخبارية إنما كانت تعتمد على الحدث السِّيَاسِي والعَسْكَري بالأساس ، ولا يمكن سد هذا الفراغ الذي تشكو منه الكتابة التَّارِيخية إلا بالرجوع إلى مثل هذه الأجناس من الخِطاب ، وبالخصوص ما تضمنته كتب النوازِل الفِقْهِيَّة وكتب المناقب والرحلات ، وكذلك مختلف الأعراف المكتوبة منها والشفوية ، من معلومات اجْتِمَاعِيَّة واقْتِصَادِيَّة ، مما يعد بديلًا عن ضحالة مثل هذه المعلومات وتشتتها وصعوبة الإلمام بها في كتب الحوليات[2]. كما تحوي كتب النوازِل قيمة عالية لا غنى عنها للمؤرخ ألا وهي «الوثيقة» فكتب النوازِل تحتفظ بكمية كبيرة منها ، وعدد لا يستهان به منها تتوفر فيه نسبة مهمة

---

(١) للمزيد انظر ، إِبْرَاهِيم القَادِري بوتشيش : «النوازِل الفِقْهِيَّة وكتب المناقب والعقود العدلية مصادر هامة لدراسة تاريخ الفئات العامة بالغَرْب الإِسْلامي (ق ٥-٦هـ/ ١٢-١٣م)» ، الرباط - مجلة التَّارِيخ العربي ، ع ٢٢، ربيع ٢٠٠٢م ، ٢٤٨؛ مُحَمَّد بن شريفة : «وقائع أندلسية في نوازل القاضي عِيَاض» ، الرباط - مجلة دعوة الحق ، ع ٢٦٤، أبريل - مايو ١٩٨٧، ٩٤؛ مُحَمَّد حجي : نظرات في النوازِل الفِقْهِيَّة ، الرباط - منشورات الجمعية المَغْرِبية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٩٩م ، ٥٥؛ مبارك جزاء الحربي : «جهود فقهاء المالِكية المغاربة في تدوين النوازِل الفِقْهِيَّة» ، الرياض - مجلة الشريعة والدِّرَاسَات الإِسْلامية ، ع ٦٤، مارس ، ٢٠٠٦، ٢٨٢.

(٢) عمر أفا : «نوازل الكرسيفي مصدرًا للكتابة التَّارِيخية» ، (ضمن كتاب التَّارِيخ وأدب النوازِل : دراسات تاريخية مهداة للفقيد مُحَمَّد زنيبر ، الرباط - جامعة مُحَمَّد الخامس ، كلية الآداب والعُلُوم الإنسانية ، ١٩٩٥م ، ٢٠٥.

من شروط الوثيقة[١].

ومن أبرز مميزات كتب النوازل؛ الواقعية والتجدد وتنوع التأليف، كما أنها ذات «طابع محلي»[٢] فهي وليدة البيئة تعكس خصائصها وسماتها التي تميزها عن غيرها، فلا تبقى سابحة في المطلق كما هو شأن كتب الفقه العامة، وإنما تتحدد مسائلها في المكان والزمان والموضوع بحسب ما تأتي به الأسئلة التي تنبني عليها، وما تطرحه من مشاكل دينية واجْتِمَاعِيَّة وفقهية. ولذا يرى الباحث الألماني جوزيف شاخت (Joseph Schacht) أن: «فهم المُجْتَمَع الإسلامي سيظل رهينًا بمدى فهم ودراسة هذه النوازل والاستفادة من مادتها الخام»[٣]. وتقول المستعربة الفرنسية راشيل آريه: «(Rachel Arie) تشكل هذه الفتاوى أهمية عظمى ليس فقط في مجال الفقه الإسلامي في الأَنْدَلُس فحسب، إنما أيضا في غزارة المعلومات التي تقدمها لنا حول الحَيَاة الاقْتِصَادِية والاجْتِمَاعِية فيه، هذه المعلومات تكاد تلو منها تقريبا كتب المُؤَرِّخين»[٤].

ثمة ملاحظة مهمة لابد من الاشارة اليها وهي: أن أهم شروط الاستفادة من النازلة أن تتوافر فيها سؤال أو عدة أسئلة واضحة تتضمن حيثيات ومعطيات كثيرة، منها تسمية صريحة لصاحب السؤال أو للجهة الصادر عنها، وتسمية

---

(١) C. CAHEN: «Considérations sur l utilisation des ouvrages de Droit musulman par l historien, dans Atti del Terzo congress», di studi arabi- Islamici (Ravello, 1-6 sep, 1966) Naple 1967, p.239-249.

(٢) مُحَمَّد حجي: «نظرات في النوازل الفِقْهِيَّة» ٥٥ ـ ٥٩.

(٣) J. SCHACHT: Esquisse d'une histoire du droit musulman, Paris, Besson, 1953, p.67.

(٤) R. ARI: «Historia De Espa'a (tomo3)», ESPA?A MUSULMANA (siglos VIII-XV), Barcelona 1989, p100.

الفقيه صاحب الجواب ، وتحديد تاريخ النازلة ، ومكانها ، يليها جواب فقيه أو عدة فقهاء حول هذا السؤال ، أو تلك الأسئلة. ثم ضرورة التحري في نسبة الجواب إلى صاحبها قدر المستطاع.

التعريف بابن الْحَاج (ت٥٢٩هـ/١١٣٤م)

اتفقت كل المَصَادِر التي ترجمت له على أن اسمه هو : مُحَمَّد بن أحمد بن خلف بن إِبْرَاهِيم التجيبي[١] ، أما تلميذه القاضي عِيَاض[٢] (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) في كتابه «الغُنية» ، فسمّاه القاضي الشهيد أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن خلف بن إِبْرَاهِيم التجيبي ابن الْحَاج ، مشيرًا إلى أن وفاته كانت سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م ، بطعنة سكين أثناء أدائه صلاة الْجَمَاعَة[٣]. وقد شهد له كتاب السير والتراجم بعلو كعبه في المجال العلمي ، إذ وصفه معاصره القاضي ابن حماد البرنسي (ق٦هـ/١٢م) في «مختصر المدارك» بقوله : «أبو عبد الله بن الْحَاج ، كان من أهل العلم والفتوى والتقدم في الْأَحْكَام ، له كتب ومؤلفات ودواوين

---

(١) (القاضي عِيَاض) أبو الفَضْل بن مُوْسَى اليحصبي ، المتوفى سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م : الغُنية (فهرست شُيُوْخ الْقَاضِي عِيَاض) ، تَحْقِيق ماهر زهير جرّار ، بيروت ـ دار الغرب الإسْلامي ١٩٨٢، ٤٤٧؛ الضَّبِيّ (أَحْمَدُ بن يحيى ، المتوفى سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) : بغية الملتمس ، القاهرة ـ دار الكاتب الْعَرَبِيّ ١٩٦٧م ، ٥١؛ البُنَّاهي (أبو الْحَسَن علي بن عَبْد الله ، كان حيًا سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م) : تاريخ قُضَاة الأَنْدَلُس ، تَحْقِيق مَرْيَم قاسم طويل ، بيروت ـ دار الكتب العِلْمِيَّة ١٩٩٥؛ المَقَّرِيّ (أَحْمَدُ بن مُحَمَّد التلمساني ، المتوفى سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) : أزهار الرِّيَاض في أخبار القاضي عِيَاض ، تحقيق مُحَمَّد السقا وإِبْرَاهِيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر د.ت ، ٣: ٦١.

(٢) الإمام العلامة الْقَاضِي أبو الفَضْل عِيَاض بن مُوْسَى بن عِيَاض اليحصبي السَّبْتِيّ وعاصر الْقَاضِي عِيَاض حكم سلطتين سياسيتين هما : دَوْلَة المُرَابِطِين ودولة المُوَحِّدِين . واليحصبي : نسبة إلى قبيلة عربية ترجع إلى حمير ، والسَّبْتِيّ : نسبة إلى سَبْتَة ، مَدِينَة الْقَاضِي عِيَاض . مُحَمَّد بن شريفة : وقائع أندلسية في نوازل الْقَاضِي عِيَاض ١٨.

(٣) عِيَاض : الغُنية ٤٧.

مصنفات»[١]، وكان فقيها فاضلًا، عمل بالتدريس والْقَضَاء، حسن الضبط جيد الكتب مطبوعا في الفتيا، مقدما في الشورى[٢].

نوازل ابن الْحَاج

تميزت نوازل ابن الْحَاج بالتنوع، والواقعية، والإغراق في المحلية؛ فضلًا عن معاصرته لكبار الْعُلَمَاء كابن عَتَّاب[٣] (٤٦٢هـ/١٠٧٠م)، وابن رُشْد الجد[٤] (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م)، والْقَاضِي ابن حَمْدِين[٥] (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)، ونوازله

---

(١) مؤلف مجهول، كتاب طبقات المالِكية (مخ. خ. ع. و. م. ر)، رقم د ٣٩٢٨، ٢٩٩ـ ٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه ٢٩٩ـ ٣٠٠؛ عِيَاض: الغُنية ٤٧.

(٣) مُحَمَّد بن عَتَّاب بن محسن: مولى عَبْدُ الْمَلِك بن سُلَيْمَان بن أبي عتاب الجُذَاميّ، من قُرْطُبَة، وهو كَبِير المفتين، دعي إلى الْقَضَاء مرارًا فرفض، وكان فَقِيها ورعا عاملا، بصيرا بالحديث وطرقه، لا يجارى في الوَثَائِق. ابن بَشْكُوَال، (أبو القاسم خلف بن عَبْدُ الْمَلِك، المتوفى ٥٧٨هـ/١١٨٣م): الصِّلَة في تاريخ أئمة الأَنْدَلُس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، القاهرة ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م، ١: ٥٤٤؛ ابن سَعِيد، (علي بن مُوْسَى، المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م): المُغْرِب في حلي الْمَغْرِب، تَحْقِيق شوقي ضيف، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٩٩م، ١: ١٦٥.

(٤) أبو الْوَلِيد مُحَمَّد بنُ أَحْمَدُ بن أَحْمَدُ بن رُشْد القُرْطُبي المالِكي، ولد بقُرْطُبَة سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، وبها تلقى علومه الشرعية وتخصص في دراسة الفقه وأصوله حتى صار من المجتهدين في الْمَذْهَب المالِكي وفاق أقرانه وجميع أهل عصره في الفقه والفتوى وعلم الفرائض والأُصُول، كما تولى منصب الْقَضَاء فقام به خير القيام وسار في النَّاس سيرة حسنة، ثم استعفى من المنصب وتفرغ للتأليف والتدريس. عِيَاض: الغُنية ١٢٢؛ المَقَّرِيّ: أزهار الرِّيَاض ٣: ٥٩.

(٥) الْقَاضِي أبو جَعْفَر حَمْدِين بن مُحَمَّد بْنُ عَلِي بْن مُحَمَّد، قَاضِي الْجَمَاعَة بقُرْطُبَة صَاحِبُ فنون ومعارف وتصانيف ولي الْقَضَاء سنة تسع وعشرين وخمس مائة بعد مقتل الشَّهِيد الْقَاضِي أبي عَبْد الله بن الْحَاج. وكان من بيت حشمة وجلالة، من أهل بيت رئاسة وجلال ولي قضاء الْجَمَاعَة وكان ذا رواية، ودراية، وعنَايَة بالعلم، بويع له بقُرْطُبَة، وتسمى بأمير الْمُسْلِمِين الْمَنْصُور بالله، ثم خلع، ثم رد، ودامت ولايته إلى أن مات بغَرْناطة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م. الضَّبِيّ: بغية الملتمس ٢٣٧؛ البُنَّاهي: المرقبة العليا ١٠٣.

كانت مصدرًا لفقهاء آخرين اعتمدوا عليها أو استرشدوا بها في استنباط أجوبتهم، مثل ابن لب (ت٧٨٢هـ/١٣٨٠م)، وأبي عبد الله القَوْري (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، والوَنْشَرِيسي (ت٩١٤هـ/١٥٠٩م).

والحقيقة أن لنوازل ابن الْحَاج جوانب متعددة عن الْحَيَاة الاجْتِمَاعِية والاقْتِصَادِية والفِقْهِيَّة خلال عصر الطَّوَائِف (٤٢٢-٤٨٧هـ/١٠٣١-١٠٩٤م) والمُرَابِطين (٤٤٨-٥٤١هـ/١٠٥٦-١١٤٦م) في غاية الأهمية والقيمة؛ فهو يتضمن الكثير من المعلومات والنّصوص والوَثَائِق التي قلما ترد في المَصَادِر التَّارِيخية والتي تمس كل جوانبِ المجْتَمَع في الْغَرْب الإِسْلامي. وتتجلى قيمة النوازِل الواردةِ في الكتاب، في اعتماد مؤلفه على أمهات مصنفات الفقه المالِكي إلى جانب فتاوى أبيه، فضلًا عن استناده إلى فتاوى فطاحلة فقهاء عصره كابن رُشْد الذي شكل مرجعيته الخاصة، إذ ورد في العديد من نوازله ما يلي: «ثم تجاوبت المسألة مع القاضي أبي الوليد بن رشد فرأى ذلك»[1].

هذا وتعد نوازل ابن الْحَاج من أبرز الكتب الفقهيه الخاصة بالْمَغْرِب والأَنْدَلُس. ولم تحظ بالاهتمام المطلوب الذي يتناسب مع هذه النوازِل القيمة، لاسيما وأن مؤلفها ابن الْحَاج كان من جلة الفُقَهَاء وكبار العُلَمَاء بالنوازِل، بصيرًا بالْأَحْكَام ومتقدمًا فى معرفتها فقد كان فى موقع الإفتاء الذي أهله للاطلاع الكافى على مجريات الأمور، وقضايا المجْتَمَع التى جرت تحت سمعه وبصره فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى. ونوازل ابن الْحَاج معين لا ينضب لدراسة النشاط الاقْتِصَادِي والاجْتِمَاعِي ونقسمها إلى ما يلي:

---

(1) نوازل ابن الْحَاج ٥٣، ٦١.

المبحث الأول : النشاط الاقْتِصَادِي

أولًا ـ الزراعة

كانت بلاد الغرب الإسلامى بلادًا زراعية يعتمد سكانه اعتمادًا كبيرًا على الزراعة وتنقش البداوة (بالمفهوم المَغْرِبي) فى أرجائه[١]. أوضحت النوازِل والفتاوى أن الأراضي الزِّرَاعِية من ناحية الملكية كانت تنقسم إلى عدة أقسام منها : **الملكية الخاصة ، والملكية العامة ، والإقطاع والأحباس وأراضي الجماعات.** وأن نوازل الملك كثيرة ، منها ما يتعلق بالْبَيْع والشراء والتوريث والكراء والهبه والشراكة[٢].

كما أوضحت كتب النوازِل أيضًا أن الأراضي الزِّرَاعِية انقسمت أيضًا إلى قسمين ، الأول أرضي سقوية يجلب إليها المياة للرى ، سواء باستخدام الآلات رفع المياه مثل **النواعير**[٣] **ـ السواقي ـ والدواليب**[٤]

---

(١) ابن خلدون (عَبْد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد ، المتوفى سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦ـ١٩٥٩م ، ١٢٠ـ١٥٣؛ عز الدين أحمد موسي : النّشاط الاقتصادي في المَغْرِب الإسْلامي خلال القَرْن السَّادِس الهِجْرِي ، القاهرة ـ دار الشّروق ١٩٨٣م ، ١٢٩.

(٢) مُحَمَّد فتحه : النوازِل الفِقْهِيَّة والمجْتَمَع : أبحاث فى تاريخ الْمَغْرب الإسْلامي (من القرن ٦ إلى ٩هـ/ ١٢ـ١٥م) ، الدار البيضاء ـ منشورات كلية الآداب والعُلُوم الإنسانية ، سلسلة الأُطروحات والرسائل ١٩٩٩م ، ٣٣٨.

(٣) الناعور : من الأدوات التي نقل العرب استخدامها من بلاد الشام الى الأَنْدَلُس واستخدمت لسقي الحقول ولا تزال مستعملة في بعض مناطق اسبانيا ولا يزال يلفظ باسمه العربي في الوقت الحاضر (Noira) فضلا عن (Garraffu) الذي يغرف به بواسطة الناعور . جودي الحفيظ : «النواعير في التُّراث العربي» ، ندوة النواعير ، بغداد ـ مركز احياء التراث العلمي العربي ١٩٩٠م ، ٢.

(٤) الدولاب : يشبه الناعور ولكن تركيبه أكثر تعقيدا وهو على نوعين الأول يديره ثور واحد أو حصان أو جمل والثاني يديره ثوران . ناجية عبد الله إبْرَاهِيم : ريف بغداد (دراسة تاريخية لتنظيماته الإدارية وأحواله الاقْتِصَادِية) للفترة ٥٧٥ـ٦٥٦هـ/ ١١٧٩ـ١٢٥٨م ، بغداد ـ دار الشؤون الثَّقَافِية العامة ١٩٨٨، هامش (٥) ٢٧٩.

والدوالي[١] ، **والسانيات**[٢] أو عن طريق مياة الأنهار أو العيون أو الآبار والأراضي الأخرى أراضي بحلية أى تروى بماء المطر[٣].

وحينما نتتبع النوازِل الفِقْهِيَّة بوجود أراضي الملك نلاحظ أنها تستعمل مسميات مختلفة من ناحية الحجر وطبيعة الاستغلال فهى تسمى ضيعة[٤] أو بحيرة[٥] أو روض ورياض[٦] أو جنات أو جنان[٧] أو قرية أو بستان[٨] .هذا وفى أغلب الأحيان التى تناولت حدود الأراضي المملوكة سواء للأفراد او الجماعات لا يظهر أعتناء بحدود تلك الملكيات ، باستثناء الأراضي السقوية التى تحدد فيها

---

(١) مفردها دالية ، تعمل بقوة الانسان وتصنع من القصب وتغلف من الداخل والخارج وهي على أنواع تختلف بحسب حجم دولابها وطول زرنوقها ، وهي عبارة عن جذع طويل يركب تركيب مدق الأرز في رأسه مغرفة عظيمة مقيرة بخوص تحمل ماء كثيرًا وجعل ما يلي المغرفة من الجذع أقصر أما المؤخرة فتكون أطول حيث يمشي عليها الرجال لترتفع مقدمة الدالية أي مغرفتها بعد ان تمتلئ بالماء لتسقي الأرض المزروعة .

S. IMAMUDDIN: «The economic history of Spain: (under the Umayyads, 711-1031 A. C.)», Asiatic Society of Pakistan, 1963, p.77.

(٢) مفردها سانية : وهي عبارة عن دولاب تربط به الدلاء التي يتم بواسطتها إخراج الماء من البئر ، حيث تربط هذه الدلاء بالحبال المثبتة بالأعمدة فوق البئر . ابن بصال (عَبْد الله مُحَمَّدبن إِبْرَاهِيم ، عاش في الْقَرْن الخَامِس الهِجْرِي/ الحَادِي عَشَر الميلادِي الميلادِي) : الفلاحة ، عني بنشره : خوسيه ماريا بيكروسا ومُحَمَّد عزيمان ، تطوان ـ مطبعة كريماديس ١٩٥٥م، ١٧٦.

(٣) الوَنْشَرِيسي ، (أبو الْعَبَّاس أَحْمَدُ ، المتوفى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م) : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والْمَغْرِب ، أخرجه جماعة من العُلَمَاء بإشراف مُحَمَّد حجى ، بَيْرُوتَ ـ دار الْغَرْب الإِسْلامي ١٩٨١م، ٦: ٣٩.

(٤) المصدر نفسه ٩: ١٦٢، ١٦٣، ٥٤٠.

(٥) المصدر نفسه ٥: ٢٨.

(٦) المصدر نفسه ٥: ١٥١، ١٠: ٢٩٢.

(٧) المصدر نفسه ٨: ٢٨، ٩: ١١، ١٥، ١٦ والجزء نفسه : ٢٩٦-٢٩٧، ٥: ٩٧.

(٨) المصدر نفسه ٨: ٢٨.

الأراضي تحديدًا طبوغرافيا يراعى موقعها من العيون والأودية أو بعض الحواجز كالصخرة والخندق والطريق»[١].

كما قدم لنا معلومات قيمة عن مظاهر النشاط الفلاحي[٢] في الأَنْدَلُس وكيف كانت بعض المناطق الريفية تسعى إلى تَحْقِيق الاكتفاء الذاتي للقمح[٣] فضلا عن الشعير والكتان[٤].

وأوضحت نوازله أيضًا قيام الأَنْدَلُسيين بنقل محاصيل زراعية جديدة جلبوها من الْمَشْرِق لم تكن معروفة في الأَنْدَلُس كالنخل والرمان وقصب السكر والليمون والنارنج والقطن والموز والارز والبرقوق والزعفران والزيتون[٥] وتحسين الأنواع الموجودة فيها من النباتات وهذا يدل على تأثر الأَنْدَلُسيين بالْمَشْرِق العربي وفضله على الأَنْدَلُس وبالتالي على أوربا حيث انتقلت المحاصيل منها الى أوربا ، ووردت في نوازله إشارات عديدة عن منتجات غذائية كالخضر والفاكهة والتمور وأنواعها مع ذكر المدن والأَسْوَاق التي تصرف فيها[٦] ؛ بل إن بعض النوازل تسمي المناطق والقرى المنتجة لهذه المواد ، وتذكر الأَسْوَاق والمدن التي تصرف فيها ، فضلًا عن تحديد بعضها لمقادير الاستهلاك الخاصة بكل شريحة اجْتِمَاعِيَّة[٧] الأمر الذي يمكننا من بلورة فهم جديد للاقتصاد الأَنْدَلُسي وخصائصه انطلاقًا من هذه المعلومات[٨].

---

(١) انظر فى مسائل المياة النزاع على الغروس الواقعة على حافتى وادى فى الوَنْشَرِيسي : المعيار ٨: ٥ـ١٦، مُحَمَّد فتحه : النوازِل الفِقْهِيَّة والمجْتَمَع ٣٤٠.

(٢) نوازل ابن الحَاج ٢٨١.

(٣) المصدر نفسه ٨، ٩٥.

(٤) المصدر نفسه ٤٨.

(٥) المصدر نفسه ٢٥٢.

(٦) المصدر نفسه ١٢٨.

(٧) المصدر نفسه ٤٨.

(٨) أحمد اليُوسُفي شعيب : أهمية الفتاوى الفِقْهِيَّة في كشف وقائع التجربة الأَنْدَلُسيّة (نوازل ابن=

87-san

هذا وتسهم نوازل ابن الحَاج فى تقديم معلومات عن النشاط الزِّرَاعِي في بلاد المَغْرِب والأَنْدَلُس؛ فقد أورد معلومات جد مهمة عن كيفية استغلال المزارعين للمياه بطريقة جماعية، وذلك بواسطة الساقية التي تمر عبر مزارعهم وتقسيم حصص تلك المياه المحمولة حسب احتياجات كل مزارع[1].

وتقدم نوازله معلومات دقيقة عن طبيعة الملكيات الزِّرَاعِية وظروف استغلالها[2]، والملكية الجماعية للأرض، وأراضي الأحباس، والملكية العمومية، فضلا عن الملكية الخاصة[3]. أما عن حجم الملكيات فتفيدنا نوازله عن كثرة أملاك السلاطين والأمراء وأفراد المخزن وتبين لنا مدى استحواز هؤلاء السلاطين والأمراء على ملكيات واسعة وعملت أحيانًا على توسيعها عن طريق المعاوضة والمَصَادِرة[4]. وفى الأَنْدَلُس كان الأمير ابن عَبَّاد (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)[5] أمير إشبِيلِيّة قبل قيام دولته يملك ثلث كورة إشبِيلِيّة[6]. وكان أبو

=الحَاج نموذجًا) (ندوة الأَنْدَلُس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الأول، التَّارِيخ وفلسفته) ٣٩٣.

(١) نوازل ابن الحَاج ١٤٧.

(٢) أحمد اليُوسُفي شعيب: أهمية الفتاوى الفِقْهِيّة ٣٩١.

(٣) نوازل ابن الحَاج ٤: ١٢٠، ٢١٥، ٢٨٠.

(٤) الوَنْشَرِيسي: المعيار ٥: ٤٣، ٤٤.

(٥) مُحَمَّد بن عباد بن مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل اللَّخْمِيّ المُعْتَمد على الله، تولى الحكم سنة (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م)، كان فصيحًا شَاعِرًا وكاتبًا مترسلًا، استمر في الحكم إلى أن خلع سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، ونفي إلى إغمات إذ أودع السجن، تُوفِّي سنة (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)؛ ابن خاقان، (أبو نصر الفتح بن مُحَمَّد، المتوفى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م): مَطْمَح الأَنْفُسِ وَمَسْرَح التَّأَنُّسِ فِي مُلَح أَهْلِ الأَنْدَلُس، (تَحْقِيق: مُحَمَّد علي شوابكة، مؤسسة الرِسَالَة، بَيْرُوت، ١٩٨٣م) ١٧٠، ابن الأَبَّار، (أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن عَبْد الله، المتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م): الحُلَة السِّيَرَاء، تَحْقِيق: حُسَين مؤنس، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٨٥م، ٢: ٥٢.

(٦) (ابن عِذَارِي)، أبو العَبَّاس، أَحْمَدُ بن مُحَمَّد، المتوفى سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م: البَيان المُغْرِب في أخبار الأَنْدَلُس والمَغْرِب، تَحْقِيق: إِحْسَان عَبَّاس، بَيْرُوت ١٩٨٠م، ٣: ١٩٥.

الحَزْم بن جَهْوَر[١] (ت٤٣٥هـ/١٠٤٣م) أغنى أهل قرطبه[٢] كذلك حرص أهل العلم والفُقَهَاء على اقتناء الأرض موردًا للرزق ، إما تعففًا عن العمل أو زهدًا أو عجزًا عن الخدمة[٣] فكان ما أن يتولى أحدهم قضاء موضع حتى تصبح له فيها الأمْوَال العريضة[٤] . وكشف لنا كان كيف كان البعض يمتلك ضياع وقرى بأكملها[٥] ؛ ففي نوازله يتضح لنا وجود علاقة وطيدة بين أصحاب النفوذ والنظام المُرَابِطي (٤٤٨-٥٤١هـ/١٠٥٦-١١٤٦م) الذيَ منحهم الجاه وحظوا برعايته رغبة أو رهبة منها ما ورد في إحدى نوازله من أن رجلا عاوض فانا بكرم كان بحوزة مقدم القرية ، وكان للرجل أخت لها نصيب في الفدان ، فلما علمت بذلك أرادت أن تطالب مقدم القرية بحقها ، فلم تجرأ عليه حتى زال من خطته[٦]. وأبرزت نوازله الكثير من صلاحيات المُحْتَسِب وحدود سلطته[٧].

كذلك تناول تكريس الأمراء والأعيان للملكيات للفائدة الخاصة وحبس الممتلكات. وهى أحباس أفتى الفُقَهَاء بعدم صحتها وبضرورة إنتزاعها منهم

---

(١) جهور بن مُحَمَّد بن جهور بن عُبَيد اللّه ، وولي الْوِزَارَةَ أيام بني عامر إلى أن انقرضت دولتهم ، ولمَّا خلع هِشَام المؤيد انعقد رأي الْجَمَاعَة بقُرْطُبَة على إسناد الأمور بالحضرة إلى شيخ الْجَمَاعَة أبي الحزم ، وكان موصوفًا بالفَضْل ، متقدمًا في الدهاء والعقل . الحُمَيْدي ، (أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن أبي نصر ، المتوفى سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) : جَذْوَة الْمُقْتَبِس ، القاهرة ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م ، ١٨٨؛ ابن خاقان : مَطْمَح الأَنْفُس ١٨٠؛ ابن الأَبَّار : الحُلَة السِّيَراء ٢: ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) ابن بَسَّام (أبو الْحَسَن علي الشَّنْتَريني المتوفى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٨ م) : الذَّخِيرَة في مَحَاسِن أَهْلِ الجَزِيرَة ، تَحْقِيق : سالم مصطفى البدري ، بيروت ـ دار الكتب العِلْمِيَّة ١٩٩٨م ، ٢: ٩١.

(٣) ابن الأبار : التَّكملة لكتاب الصِّلَة ، نشرة عزّت العطّار الْحُسَيني ، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٥٦م ، ٢: ٨٧٨.

(٤) ابن سعيد الْمَغْرِبي : المُغْرِب في حلي الْمَغْرِب ٢: ٧٢.

(٥) نوازل ابن الْحَاج ٤: ١٢٠، ٢١٥، ٢٨٠.

(٦) المصدر نفسه ١١٣ ـ ١١٤.

(٧) المصدر نفسه ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

وإعادتها لبيت المال وهو ما فعله المنصور بن أبي عامر في نازلة أوردها ابن الْحَاج[١]. وأشار إلى أن المسألة التي اهتم بها القاضي ابن حمدين في زمن المُرَابِطين هي التأكد من شرعية الأرباح التي تعود على الدَّوْلَة من الأحباس[٢].

وتعرض ابن الْحَاج لما يسمى **فقه الأراضي** وشرعية امتلاكها والانتفاع منها[٣] والضرائب التي تفرض عليها. وقد وردت اشارات في نوازله عن **الوَثَائِق والسجلات** عن شرعية الاراضي، كما عرض لنا أسباب الخصومات على المياه والتي مردها في الغالب إلى خرق الأفراد والجماعات والقوانين والأعراف، ونوازله تلقي الأضواء على قضايا المزارعين، ومنها طرق الاستغلال الزِّرَاعِي وعلاقات الإنتاج بين صاحب الأرض والمزارع المستأجر، وكذلك وضعية الأرض والنزاعات التي كانت تقوم بسببها بين المزارعين في قبيلتين متجاورتين، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله في هذا المقام. ونكتفي ببعض النماذج من النوازِل التي تكشف عن مجموعة من الصور المتعددة الخاصة بالمزارعين، والهدف من ذلك إعطاء الأدلة على ما تختزنه كتب النوازِل من مادة تاريخية في غاية الأهمية حول قطاع المزارعين. ورد في إحدى النوازِل أن «امرأة زارعت في حصة لها في قرية رجلًا. فلما كان أكثر، أكرت فلانة المزارعة[٤] هذه الحصة لمدة من عامين بعشرة مثاقيل، والعام الأول منها هو العام الذي وقعت فيه المزارعة»[٥].

---

(١) نوازل ابن الْحَاج ٨٨.

(٢) المصدر نفسه ١٣٠.

(٣) المصدر نفسه ١٤٧.

(٤) المزارعة: هي تسليم الأرض لرجل يقوم بزراعتها ببعض ما يخرج منها والبذر من المالك، وتتم «بجزء مشاع مسمى مما يخرج الله تعالى من الأرض». وتقوم على عدة مبادئ هي موضوع اختلاف أحيانا بين الْفُقَهَاء، انظر: ابن مَنْظُور: لِسَان العَرَب ٣: ٣٧٧؛ يُوسُف نكادي: الزراعة في الأَنْدَلُس خلال القَرن الخَامِس الهِجْرِي، المغرب ـ مطبعة الجسور ٢٠٠٧م، ١٩٦.

(٥) وردت هذه النازلة في كتاب «المعيار» للونشريسي الذي أخذها عن ابن الْحَاج. انظر: المعيار ٨: ١٦٦.

إن قراءة أولية في هذه النازلة تفصح عن شكل من أشكال نظام استغلال الأراضي بالأَنْدَلُس وعلاقة صاحب الأرض بالمزارع[١]. فنمط الاستغلال هنا هو نظام المزارعة الذي يقتضي أن يكري صاحب الأرض - وهو في النص امرأة - أرضه لمزارع يقوم بخدمتها وحرثها وتقليبها مقابل حصول الأخير على حصة محدودة من الإنتاج، ولو أن النص لم يوضح مقدار هذه الحصة؛ إلا أنه بيّن ثمن الكراء الواجب دفعه من طرف المزارع، وهو عشرة مثاقيل لمدة سنتين، أي بمعدل خمسة مثاقيل كل سنة. فقيمة كراء الأرض وحصة الإنتاج وطريقة الاستغلال، كلها معلومات تنعدم في الحوليات التَّارِيخية، بينما تقدمها النوازِل بشكل دقيق لو تم الجمع بينها وتكميل ما نقص في الواحدة من خلال الأخرى[٢].

كما تكشف نوازله عن بعض النزاعات التي كانت تشجر بين المزارعين بسبب مشاكل الماء. من ذلك على سبيل المثال ما توضحه نازلة حول مزارعين كانوا يسكنون موضعًا عاليًا وآخرين يقيمون أسفلهم، فغرس الأوائل خضرًا وبقولًا وسقوها، لكنهم قطعوا بذلك المياه عن القاطنين أسفلهم، مما تمخض عنه نزاع بين الجانبين أفتى فيه ابن الْحَاج بضرورة احترام كل طرف لحصصه المعلومة من المياه[٣]. كما تبين نوازل أخرى صورة من صور النزاعات والمشاكل التي كانت تسود العالم القروي، وتتجلى في مشكل تجاوز بعض المزارعين حدود أراضيهم إلى أراضي غيرهم والقيام بحرثها. ومما يؤكد ذلك النازلة التالية: »جوابك - رضي الله عنك - في رجل زارع أقوامًا في قرية له فتجاوز المزارعون حدود القرية التي زورعوا فيها إلى أرض قرية أخرى تجاورها وحرثوها، فشكا

---

(١) VÛ LAGARD?RE: *Campagnes et paysans d'Al-Andalus VIIIe-XVe*, Paris-Maisonneuve et Larose, 1993, p.259.

(٢) للمزيد انظر، إِبْرَاهِيم الْقَادِري بوتشيش: النوازِل الفِقْهِيَّة ٢٤٨.

(٣) نوازل ابن الْحَاج ٣٩٢.

رب القرية المتجاوز إليها أولئك المزارعين»[١].

ومن نوازل ابن الحَاج يمكن للبحث التَّاريخي الإفادة منها في رصد شكل من أشكال العلاقة بين المزارع وصاحب الأرض، وهو ما يعرف **بالمغارسة** الذي يقتضي أن يستأجر المالك زارعًا يتقن غراسة الأشجار لمدة يتفق عليها الجانبان قد تصل إلى عشر سنوات. وبمقتضى العقد يسلم صاحب الأرض المساحة المغروسة وما يستلزمها من سقي وزريعة، بينما يقدم المزارع عمله فيتعهد الأشجار بالغراسة والسقي، على أن يتقاسم الطرفان المحصول مناصفة. غير أنه في بعض الأحيان كان يترتب على ذلك مشاكل بينهما، خاصة عند حدوث كوارث طبيعية أو حريق يأتي على الأشجار. وهذا ما يتضح من خلال النازلة الآتية «وسئل ابن الحَاج عمن غارس رجلًا إلى الإطعام مغارسة صحيحة؛ فإذا بلغته، كان بينهما بنصفين يقتسمانه. فلما بلغ ذلك، احترق، فامتنع رب الأرض من إعطائه نصفها»[٢].

وفي نازلة يستطيع الباحث أن يقف على الشروط التي يتعاقد عليها صاحب الأرض والمزارع، وغالبًا ما كانت هذه الشروط تحدد مسبقًا. كما يتبيّن أن بعض الملاكين العقاريين كانوا ينيبون عنهم وكلاء لتحصيل حصصهم من الإنتاج المتفق عليه، وهذه الحصة تكون حصة عينية وليست نقدية كما يتجلى من خلال نص النازلة التالية: «وسئل ابن الحَاج عمّن زارع رجلًا في أرضه على جزء معلوم وشرط الزارع أن يعطي لوكيل رب الأرض ستة أقفزة عن الزوج»[٣].

---

(١) نوازل ابن الحَاج ١٢١، ١٢٢.

(٢) نوازل ابن الحَاج ٣١.

(٣) الوَنْشَريسي: المعيار ٨: ١٦٧.

ثانيًا ـ الصناعة

وفي **ميدان الصناعة** تختزن نوازل ابن الحَاج معلومات متنوعة[١] فأشار إلى العديد من الصناعات منها **الصناعات الجلدية** التي لاقت ازدهارًا كبيرًا في الأَنْدَلُس[٢].

أما بالنسبة **للتعدين** تحدثنا نازلة عن حاجة الأَنْدَلُسيين إلى المعادن، وتؤكد ضرورتهم إلى التحرف فيها[٣]، وتشير نازلة أخرى إلى الأطوار التي كانت تمر بها هذه الصناعة حيث كان الفُقَهَاء في قُرْطُبَة «يفتون في هذا الحديد الذي يساق من المعادن ويباع بسوق الحدادين ثم يشترى من التجار لعمل الآلات منه»[٤] كما وقعت الاشارة في نازلة أخرى إلى بعض المشاكل الفِقْهِيَّة القضائية التي كانت تطرح بقوة نتيجة انتشار الملكية الخاصة لمناجم المعادن[٥]، ومشاكل أخرى بسبب جودة بعض المعادن[٦].

هذا ونستنتج من خلال بعض النوازِل والفتاوى التى أوردها ابن الحَاج أن بلاد المَغْرِب اشتهرت ببعض المعادن من أهمها **الملح** الذي كان يستخرج من صحراء المَغْرِب يستخرجونها من جوف الأرض ويقطعونها كألواح الرخام وكانت ألواح الملح هى معظم تجارتهم حيث كانوا يحملونها من بلد إلى أخر فكانوا يتجهزون به إلى سجلماسة وغانة وبلاد السودان.

---

(١) أحمد اليُوسُفي شعيب : أهمية الفتاوى الفِقْهِيَّة ٣٩٤.

(٢) نوازل ابن الحَاج ٨٨.

(٣) نوازل ابن الحَاج ١٧٧.

(٤) المصدر نفسه ١٩.

(٥) نوازل ابن الحَاج ٣٠.

(٦) المصدر نفسه ٢٠.

وجدير بالذكر في هذا الصددَ أن بلاد الْمَغْرِب اشتهرت بمعادن كثيرة، فقد أشارت المَصَادِر إلى وفرة معدن **الحديد**[١] **والزئبق** بجبل قرب مدينة أرزوا (على مسافة أربعين ميلًا من وهدان) كما أشتهرت طنجة **بالرخام والأحجار الكريمة** بالإضافة إلى معدن **النحاس** الذى يتوفر فى إيجلي قاعدة بلاد السوس بالْمَغْرِب الأَقْصَى، كذلك كان يجلب من أودغُست جنوبي الْمَغْرِب الأَقْصَى ويعتبر ذهبها من أجود ذهب الأرض[٢]. وتشير نوازل ابن الْحَاج إلى ازدهار صناعات عديدة في مختلف أنحاء الأَنْدَلُس حيث تخصصت كل ناحية في إنتاج صناعة معينة، فكان عصر الزيوت في قُرْطُبَة والأنسجة الحريرية في جَيَّان»[٣].

ثالثًا ـ التِّجَارَة

تعرض ابن الْحَاج لمسائل متعددة تخص **العقارات المثمرة والبيوع والاستدانة**[٤]، **ومسائل القروض**[٥]، واحتوت نوازله على كثير من أصول المعاملات فى الْبَيْع والشراء فقد أشار ابن الْحَاج إلى نظام التسعير فى أرجاء البلاد **ونظام التسعير** على أهل الأَسْوَاق[٦]. وفي نازلة مهمة يرجع تاريخها للعصر المرابطي ورد تحديد قيمة ١٠٠ دينار مرابطي دفعت في غَرْناطة كثمن لكمية من الأغذية التي يجب أن تبعث إلى جيان[٧]. ونازلة أخرى جاء فيها أن البائعين في قيسارية السكاكين

---

(١) الوَنْشَرِيسي: المعيار ٥: ٢٦٠.

(٢) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تَحْقِيق: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء ـ دار النّشر الْمَغْرِبية ١٩٨٦م، ٢١٢.

(٣) نوازل ابن الْحَاج ٣٦، ٨٠، ٨١، ١٩٧.

(٤) المصدر نفسه ٧، ٣٢، ٣٦.

(٥) المصدر نفسه ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٦) المصدر نفسه ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٧) المصدر نفسه ٣٢.

ومناطق أخرى طلبوا درهمًا من نحاس زيادة عن كل ٨ دراهم ثمن مشتريات أو غيرها من المنتجات[١].

وردت معلومات مهمة لديه عن الثروة المعدنية مثل نازلة بيع المعادن في قُرْطُبَة إلى جانب الملكية الخاصة لأحد المناجم بالمدينة نفسها[٢]، وقدم لنا ثروة قيمة من المعلومات الاقْتِصَادِية الخاصة بالنقود وأنواعها وأوزانها وكيفية التعامل بها في بلاد الْمَغْرِب والأَنْدَلُس وتعرض لما ما حدث للعملات من تقلبات، مثل تعرضه لانقراض عملة ابن جهور في قُرْطُبَة ومنافسة سكة ابن عباد لها»[٣].

وتناوَل ابن الْحَاج **نظام الصيرفة** وكيف تمكنَ عدد كبير من الصيارفة من كسب أرباح مهمة من وراء تلك الأعمال[٤]. وتعرض أيضًا إلى المعاملات والتبادلات التِّجَارِية التي تحدث بين مدن اقليم الْمَغْرِب الأَقْصَى والأَنْدَلُس، وهي تشمل المواد التي تنتجها كالحاصلات الزِّرَاعِية او تقوم بضعتها وكذلك الثروات المعدنية والبضائع والسلع التي تصل الى الإقليم عن طريق التِّجَارَة الخارجية، وترد في نوازله كثير من الصور المعبرة عن مختلف مظاهر النشاط التجاري في الأَنْدَلُس على عهد الطَّوَائِف والمُرَابِطين[٥]، ويشير إلى امتلاء تلك الأَسْوَاق بأهل الحرف والتجار والصناع، وأن كل سوق من أسواق الْمَغْرِب كان يختص بنوع معين من السلع[٦]، فهناك أسواق للرقيق وأخرى للزيت والبر والعطارة والخضر واللحوم وغير ذلك؛ وكانت لبعض هذه الأَسْوَاق أيام معينة يعرض فيها التجار بضائعهم،

---

(١) نوازل ابن الْحَاج ١٧.

(٢) نوازل ابن الْحَاج ٣٠.

(٣) المصدر نفسه ٢٩٥.

(٤) المصدر نفسه ٢٧٧.

(٥) للمزيد انظر، أحمد اليُوسُفي شعيب: أهمية الفتاوى الفِقْهِيَّة ٣٩٥.

(٦) نوازل ابن الْحَاج ٢٧٧.

فكان هناك أسواق أسبوعية او نصف أسبوعية فى القرى حيث تعرض فى هذه الأَسْوَاق المنتجات الزِّرَاعِية والصناعية ، كذلك كان يقصد بها تجار المواد الغذائية من جزارين وتجار سمك ؛ وكان سوق الصرافين في قُرْطُبَة كان يعرف حركة دؤوبة بين التجار والمتعاملين[١] ، وتبرز نوازله أشكال التعامل وتنوعها ، فمنهم من اتخذ المعاصر والأرحاء فجى منها أرباحا طائلة[٢] ، في حين فضل بعضهم استثمار بعض ما يملكه من مال أذهب بدفعه إلى من يثجر به على حصة من الربح معلومة[٣] ، كما أوضح دور الدَّوْلَة في التدخل المباشر أحيانًا لتحديد أسعار بعض السلع[٤].

المبحث الثاني : الْحَيَاة الاجْتِمَاعِية

أما من **الناحية الاجْتِمَاعِية** فقد رصد لنا ابن الْحَاج **التدرج الطبقي** في الأَنْدَلُس حيث قسم الناس إلى ثلاث طبقات : **الأغنياء ، ومتوسطو الحال ، والمقلون**[٥] ؛ فما يخص طبقة الحكام والأعيان يشير إلى تفشي ظاهرة استغلال النفوذ والشطط في استعمال السلطة[٦] ، فأورد قصة رجل عرف بابتزازه واختلاسه الأَمْوَال حين كان جابيا للخراج في عصر الطَّوَائِف ، فلما دخل المرابطون الأَنْدَلُس «لاذ بأحد أبناء النيا واحتمى به» كما أن بعضهم كان يرغم الناس على بيع ممتلكاتهم[٧] كما أن

---

(١) نوازل ابن الْحَاج ، ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه ٥٣.

(٣) المصدر نفسه ٢٧٣.

(٤) المصدر نفسه ٢٨٩.

(٥) المصدر نفسه ٩٠ ـ ٩١.

(٦) المصدر نفسه ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٧) المصدر نفسه ١٦، ٣٥.

بعضهم أيضًا تمكن من تنمية ثرواته عن طريق **التسليف بالفوائد**[١] والبعض الآخر تمكن من تنمية الأمْوَال عن طريق الأسهم[٢].

كما تحدث ابن الحَاج عن **طبقة العامة** التي شملت الحرفيين وصغار التجار والباعة المتجولين والمستخدمين الأجراء وأصحاب المهن الوضيعة والرعاة والمهمشين والعبيد ، ترد في نوازله معلومات دقيقة ومتنوعة عنهم يمكن اتخاذها أساسًا لتكوين فهم جديد يصور أوضاع هذه الشرائح[٣].

وقدمت لنا نوازله مدى **التفاوت في الملكيات** والتي عكست تفاوت الناس في مراتبهم وطبقاتهم ونجد في ثنايا نوازله معلومات قيمة ، ومن بين النّصوص النادرة نص هام يتحدث عن قضايا الجواري والإماء والعبيد ومحاكم العصر في حواضر المُرَابِطين ،، حيث أظهر ابن الحَاج «حِسَّ الفتوى» الذي اكتسبه من خلال تعامله مع واقعه المُجْتَمَعي فتعرض ابن الحَاج لما يعرف بالجرائم العائلية والدفاع عن الشرف عندما أورد جريمة ارتكبها رجل في حق رجل آخر بسبب خيانة زوجية[٤].

كما رصد ما وصل إليه عدد كبير من **النصارى** من مكانة اجْتِمَاعِيَّة مرموقة فنجده يصف أحد النصارى بأنه «**ذو جاه ومقدرة**»[٥] ، وكيف أن بعضهم كسب ثروات طائلة بطرق غير شرعية في عصر ملوك الطَّوَائِف ، وتمكن من الاحتفاظ بها لنفسه عن طريق الاحتماء وراء «**أصحاب النفوذ والجاه**»[٦] ، وكيف حظوا أيضًا برعاية الدَّوْلَة خاصة في عهد عَلِي بن يُوسُف بن تَاشفِينْ (٥٠٠-٥٣٧هـ/

---

(١) نوازل ابن الحَاج ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه ٢٤١.

(٣) المصدر نفسه ٢٩٥.

(٤) نوازل ابن الحَاج ١٥٦.

(٥) المصدر نفسه ١١٩.

(٦) المصدر نفسه ٢٥٢.

١١٠٦-١١٤٣م) الذي كان يشملهم بعطفه ورعايته، حتى إن إحدى الوَثَائِق المسيحية أكدت أن تعلقه بالنَّصَارَى فاق تعلقه برعيته، وأنه أنعم عليهم بالذهب والفضة وأسكنهم القصور[١].

كما طرحت نوازله بعض المشاكل التي تؤدى بها **الجزية**[٢]، فقد رأى بعض النصارى أن يدفعوها جماعيًا بدلا من أدائها حسب الرؤوس، وفي حالة ما إذا بلغ أحد من أبنائهم الحلم، لا يلزمه شئ ن لكن إذا مات أحد من رجالهم البالغين، فإن قدر الجزية الجماعية يبقى على ما هو عليه[٣].

كما تضمنت نوازله أخبارا عن **الْيَهُود** وإشارات عن دورهم في الْحَيَاة الأَنْدَلُسيّة[٤]. وإسهاماتهم في الأحداث والوضعية القانونية والاجْتِمَاعِية لهذه الطائفة فوجدنا أحكامًا تقضي بأن يدفع يهود العدوتين ضريبة العشر إذا انتقلوا بتجارتهم إلى العدوة الأخرى، في حين يسقط عنهم ذلك متى اكتفوا بالتِّجَارَة في موطنهم الأصلي[٥].

كما أشار إلى تفشي **ظاهرة السرقة** وعليه فقد اضطر الناس إلى تحصين أنفسهم بإصلاح الأسوار والدروب تحسبا لتحركات اللصوص والدعرة[٦] ويؤكد ذلك ما أورده المقري حيث يقول: «ولا تكاد في الأَنْدَلُس تخلو من سماع «دار فلان

---

(١) إِبْرَاهِيم الْقَادِري بوتشيش: مباحث في التَّارِيخ الاجْتِمَاعِي للمغرب والأَنْدَلُس، بيروت - دار الطليعة ٢٠٠٢م، ٧٤.

(٢) نوازل ابن الْحَاج ٢٩٥.

(٣) إِبْرَاهِيم الْقَادِري بوتشيش: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأَنْدَلُس، (ندوة الأَنْدَلُس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الأول، التَّارِيخ وفلسفته)، ٢٣٤.

(٤) نوازل ابن الْحَاج ٢٩٣.

(٥) المصدر نفسه ٢٩٥.

(٦) المصدر نفسه ٢٨٩.

دخلت البارحة» و«فلان ذبحه اللصوص على فراشة» »[١].

كما انتشرت في تلك الحقبة جملة من **أمراض الأطفال** كالقروح التي تصيب الرأس، وداء «الحية» الذي كان يتسبب في سقوط الشعر، هذا إلى جانب داء «السعفة» وهو عبارة عن قروح تصيب رأس الصبي ووجهه كما انتشرت أمراض أخرى كالطاعون وداء الجرب والبزص والفالجية والصداع والشقيقة وداء البطن والزتق[٢].

كما تحدث عن **ملابس أهل الأَنْدَلُس**، وأنهم اعتادوا ارتداء أنظف وأحسن الثِّيَاب فكان من ملابسهم الغفارة (ghifara) التي أخذها أهل الأَنْدَلُس عن الْمَغْرِب وأن الغفائر قد استعملت لتعني غطاء للرأس، وأيضا كلباس لبسه الكبار والصغار على حد سواء، فقد واعتبرت لباسا للصغار في إجابة أبي «ابن الحاج» على نازلة يذكر فيها أن ثريا طلق زوجته ومعها طفل في عمر الرضاعة ففرض القاضي للطفل «غفيرة أو طويق خز»[٣] ويتضح لنا من نازلة أخرى أن الغفارة لبسها الكبار، فاستعملت لتأدية بعض المهن حينا وفي أخرى للزينة خصوصا في صلاة الجمعة والعيدين، فيقول «وللزوج أيضا غفارتان أحدهما للمهنة والأخرى للعيدين والجمعة»[٤].

وتمدنا نوازله بمعلومات قيمة فيما يخص لباس النساء حيث ارتدت الأندلسيات في العصر المرابطي المقنع كغطاء للرأس كما اتخذن الخمار من الصوف أو من الأقمشة الحريرية التي تختلف من حيث درجة جودته في ثمنها[٥] وقدم لنا وصفا

---

(١) نَفْح الطِّيب ١: ٢١٩.

(٢) نوازل ابن الحَاج ٧٠.

(٣) المصدر نفسه ٩٠.

(٤) المصدر نفسه ٩٥.

(٥) المصدر نفسه ٩٠.

لملابس الميسورات الحال، وهذا من خلال ما فرضه زوج ثري لمطلقته من قمصان وسراويل[١] وفي نازلة أخرى فرض لمطلقته من الكسوة في فصل الشتاء فروة تسر بوجه خز ودراعة durra[٢] عن فصلي الربيع والخريف إلى جانب قميصين جديدين أيضا[٣].

وتتناول نوازله إشارات تدل على وضعية المرأة فقدم صورًا ومعلومات وفيرة عن المرأة وملابسها وقدم صورة عن العادات والتقاليد في الأفراح والأعياد والمناسبات. وأن المرأة لا تتزوج دون اذن وليها وأورد نازلة مفادها أن امرأة أخرى زج بها في السجن لأنها تزوجت بغير إذن وليها[٤] ويبدوا لنا من خلال نوازله أيضا أن أهم شرط يشترطه الرجل في المرأة التي ينوي الزواج بها أن تكون بكرا[٥].

وبعد الزواج تبين نوازله أن هناك عددا من الزوجات سعين إلى كسب محبة أزواجهن عن طريق وهب أموالهن إليهم[٦]، وما إقدام «زينب النفزاوية» على الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسها اتجاه الأمير «أبي بَكْر بن عمر» (ت٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) وأعطته أموالا طائلة[٧] إلا دليلا قاطعًا على ما ذهب إليه ابن الحاج[٨].

---

(١) المصدر والصفحة نفسيهما.

(٢) عبارة عن ثوب مفتوح من المنتصف عند أسفل فتحة الرقبة، مبطن بالفراء في الشتاء، أما في الصيف فكانوا إما ينزعون عنها البطانية أو يصنعون دراعة أخرى بدون بطانية. ابن الخَطِيب: الإحاطة في أخبار غَرْناطة، ١: ١٣٥؛ صالح أَحْمَد العلي: «المَنْسُوجات والألبسة العَرَبِيَّة في القَرْن الأول الهِجْرِي»، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد- المجلد ١٣، ١٩٦٦م، ١٠.

(٣) نوازل ابن الحَاج ٩١.

(٤) المصدر نفسه ٦٦.

(٥) المصدر نفسه ٧٢.

(٦) المصدر نفسه ٥.

(٧) ابن عذارى: البيان المُغْرِب ٤: ١٨.

(٨) وفعلت التصرف نفسه عندما تزوجت من الأمير يوسف بن تاشفين. المصدر نفسه ٤: ١٨.

كما تناول بعض المشاكل الزوجية التي عادة ما تفضي إلى الخلاف بين الزوجين منها عدم انصياع الزوجة لأوامر زوجها ، وإن كانت هذه الظاهرة متفشية أكثر في أوساط العائلات الوجيهة ، وحسبنا في ذلك أن «حواء «زوجة «سِيْر بن أبي بَكْر (٥٠٧ هـ/١١١٤م)» أبت مرافقة زوجها بعد تعيينه على رأس ولاية إشبيليّة ، إلا أن ألزمها الأمير يوسف بن تاشفين بالسير معه[١].

كما كان لغياب الزوج عن زوجته ، واستمراره لمدة طويلة أن أسهم في تفاقم المشاكل الزوجية وأدى أحيانا إلى الطلاق ، وهو ما يفهم من النازلة التي أوردها «ابن الحاج» والتي حكم فيها لزوجة ادعت غياب زوجها أن تنتظر أربعة أعوام ، فإن لم يرجع إليها أصبحت حرة في تطليق نفسها[٢].

كما كان **الطلاق** على العموم عبء على الرجل بسبب النفقات المفروضة عليه وقد حدد ابن الحاج نفقة الزوج الفقير على زوجته المطلقة «بربع ونصف دقيق وثمن زيت ، وحمل حطب ، وأربعة دراهم صرف وبيت تسكنه وكسوة مع نصف درهم في الشهر»[٣] واختلفت النفقة المفروضة على الزوج فكانت نفقة الرجل المتوسط الحال في حال تطليق زوجته وهي حامل أو مرضعة ربع دقيق وثمن ونصف زيت ونصف حمل حطب ، وستة دراهم صرف ، ومسكن وكسوة[٤] في حين فرض على الرجل الغني كلية الإنفاق على امرأته المطلقة ما مقداره ربع دقيق ، زيت وحمل حطب وخمسة عشرة درهما في الصرف كل شهر ، ويكري لها منزلًا ، أما إذا كانت في بداية الحمل فيبتاع لها قميصا وسراويل وغير ذلك من الكسوة[٥].

---

(١) نوازل ابن الحَاج ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه ٩٠.

(٤) المصدر والصفحة نفسيهما.

(٥) المصدر نفسه ، ٩٣.

الخاتمة والنتائج

مما سبق تبين لنا أن نوازل ابن الحاج تمثل مصدرا من المَصَادِر الرئيسية لمؤرخ القضايا الاقْتِصَادِية والاجْتِمَّاعِية وأصبحت النوازِل بصفة عامة محل اهتمام عدد كبير من الباحثين ومن خلال استعراضنا لموضوع : **كتب النوازِل مصدرًا للدراسات الاقْتِصَادِية والاجْتِمَاعِية في الْمَغْرِب والأَنْدَلُس (نوازل ابن الْحَاج أنموذجًا)** تبين لنا ما يأتي :

ـ قدم اكتشاف نوازل **ابن الْحَاج** ، خدمة معرفية للدراسات التَّارِيخية لا مثيل لها. فقد كشفت وثائق **ابن الْحَاج** عن حصيلة ضخمة من النّصوص والوثائق أكدت بما لا يدع مجالا للشك على أهمية المَصَادِر الدفينة وكتب النوازِل خاصة في إعادة كتابة تاريخ الْغَرْب الإِسْلامي الاقْتِصَادِي والاجْتِمَاعِي ناهيك عن الجانب الديني والثَّقَافي.

ـ اشتملت نوازل ابن الْحَاج على أحداث تاريخية وفقهية واقتصادية واجْتِمَاعِيَّة قد لا تتوافر في كتب التَّارِيخ أحيانًا ؛ ذلك لأن النوازِل تعمل على معالجة تلك الظواهر بحسب مقتضيات الزمان والمكان.

ـ تميزت نوازل ابن الْحَاج بالتنوع ، وكانت مصدرًا لفقهاء آخرين اعتمدوا عليها أو استرشدوا بها في استنباط أجوبتهم ، مثل ابن لب والوَنْشَرِيسي وأبي عبد الله القوري.

ـ اشتملت نوازل ابن الْحَاج على جوانب متعددة عن الْحَيَاة الاجْتِمَاعِية والاقْتِصَادِية والفِقْهِيَّة وكانت في غاية الأهمية والقيمة ؛ فهو يتضمن الكثير من المعلومات والنّصوص والوَثَائِق التي قلما ترد في المَصَادِر التَّارِيخية والتي تمس كل جوانب المُجْتَمَع في الْغَرْب الإِسْلامي.

ـ كان لنوازله قيمة حقيقية في حلول كثير من مشكلات عصره ، وأهل زمانه ، إذ هي حلول لمعضلات نزلت بأهل بلاده.

ولقد أوصت الدراسة بعدة توصيات من أهمها

١- ضرورة قيام دراسات وأبحاث تفصيلية تصل لدرجة الماجستير وربما الدكتوراه عن هذه النوازل البالغة القيمة والتي تعد مصدرا لدراسة التَّارِيخ الاقْتِصَادِي والاجْتِمَاعِي لبلاد الْمَغْرِب والأَنْدَلُس.

٢- نوصي بضرورة تَحْقِيق هذا المَخْطُوط القيم ونشره في مؤسسات علمية وبحثية ليتسنى لأجيال الباحثين القادمة الاطلاع على إسهام نوازل ابن الْحَاج في الكشف عن العديد من الظواهر الاقْتِصَادِية والاجْتِمَاعِية والفِكْرِيَّةُ في الأَنْدَلُس.

٣- لفت نظر الباحثين لأهمية وقيمة النوازِل الفِقْهِيَّة وإيجاد جيل واعي من الدارسين يعمل على الكشف عن المظان الأخرى في البحث التَّارِيخي الذي يعد مخزون حضاري وثقافي رفيع المستوى.

٤- ضرورة التعاون بين المهتمين بالنوازِل الفِقْهِيَّة وتنظيم ملتقيات ومؤتمرات علمية سنوية لتبادل الخبرات والأبحاث من أجل إنتاج عمل موسوعي يعدد مآثر تلك النوازِل ويجلي كنوزها للباحثين.

٥- التوصية بضرورة إدراج دراسة النوازِل الفِقْهِيَّة ضمن برامج التمهيدي للماجستير في الجامعات العَرَبِيَّة التي تدرس التَّارِيخ الإسلامي.

٦- تخصيص أحد المؤتمرات القادمة لموضوع النوازِل الفِقْهِيَّة وتأثيرها في تطور علم التَّارِيخ.